مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (١٠) العدد (١٠) ٢٠٢٦
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (10) No. (10) 2026

المؤسّسة العقابيّة وإنتاج الهامش: قراءة ثقافيّة للسّجن في شعر اللّصوص في العصر الأمويّ

د. عدنان محمّد أحمد *
د. وهران حبيب**
مها نبيل علي***

(تاريخ الإيداع ١٤/ ٤/ ٢٠٢٦. قُبِل للنشر في ١٣/ ٥/ ٢٠٢٦)

□ ملخّص □

يقدّم هذا البحث قراءة ثقافيّة لتجربة السّجن في شعر اللّصوص، انطلاقاً من فرضيّة مفادها أنّ السّجن ليس فضاء ماديّاً فحسب، بل مؤسّسة عقابيّة، يهيمن عليها نسق سلطويّ، يسعى إلى ضبط الأفراد والتّحكّم في علاقاتهم داخل المجتمع.

ويحاول البحث تتبّع أثر هذا النّسق السّلطويّ المهيمن في إنتاج الهامش، وإبراز دور الوصمة الّتي ترسخها المؤسّسة العقابيّة في إقصاء السّجين عن الدّائرة الاجتماعيّة. كما يحاول إظهار دور الوعي الهامشيّ للصّ السّجين في تعرية هذه المؤسّسة، ومقاومة ما يتعرّض له من إقصاء وتهميش.

ويستفيد البحث من معطيات النّقد الثّقافيّ ومقولاته الّتي تساعد على قراءة شعر اللّصوص السّجناء بوصفه خطاباً ثقافيّاً، بما يتيح الكشف عن المسكوت عنه في هذا الخطاب. كما يستأنس البحث ببعض تصوّرات ميشيل فوكو، ولا سيّما فيما يتعلّق بفهم السّجن بوصفه مؤسّسة عقابيّة تسهم في إنتاج الهامش الاجتماعيّ.

الكلمات المفتاحيّة: المؤسّسة العقابيّة، الهامش، السّجن، اللّصوص، شعر.

* أستاذ، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة اللّاذقيّة، اللّاذقيّة، سوريا.
** أستاذ مساعد، قسم اللّغة العربيّة، كلية الآداب، جامعة اللّاذقيّة، اللّاذقيّة، سوريا.
*** طالبة دكتوراه، قسم اللّغة العربيّة، كلية الآداب، جامعة اللّاذقيّة، اللّاذقيّة، سوريا.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (١٠) العدد (١٠) ٢٠٢٦
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (10) No. (10) 2026

The Penal Institution and the Production of Marginality: A Cultural Reading of Prison in Thieves' Poetry during the Umayyad Period

Dr. Adnan Muhammad Ahmad*
Dr. Wahran Habeeb**
Maha Nabeel Ali ***

(Received 14/4 /2026. 13 /5/2026)

□ ABSTRACT□

This study offers a cultural reading of the prison experience as represented in thieves' poetry, proceeding from the premise that prison is not merely a physical space, but rather a penal institution governed by an authoritative system that seeks to discipline individuals and regulate their relationships within society.

The research attempts to trace the impact of this dominant power structure in the production of marginality, highlighting the role of stigma_ reinforced by the penal institution_ in excluding the prisoner from the social sphere. It also seeks to demonstrate how the marginal consciousness of the imprisoned thief exposes this institution and resists the forms of exclusion and marginalization imposed upon him.

The study draws on the frameworks and concepts of cultural criticism, which facilitate reading prisoners' thieves' poetry as a cultural discourse, thereby enabling the (unveiling the unspoken) within this discourse. It further engages with selected theoretical insights of Michel Foucault, particularly those (concerning the understanding of prison as a penal institution that contributes to the production of social marginality).

Keywords:. Penal institution, marginality, prison, thieves, poetry.

* Professor, Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Lattakia University, Lattakia, Syria.
** Associate Professor, Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Lattakia University, Lattakia, Syria.
***PhD student, Department of Arabic Language Faculty of Arts, Lattakia University, Lattakia, Syria.

المقدّمة:

تُعدّ تجربة السّجن إحدى التّجارب القاسية الّتي تترك أثرها في نفسيّة الفرد وجسده؛ فالسّجن فضاء يعزل الفرد ويبعده عن محيطه الاجتماعيّ، وفيه تُحتجز حرّيّته، وتُستلب إرادته، فيجد نفسه خاضعاً لسلطة تتحكّم في مصيره[ ]، ومصير جسده الّذي يتحوّل مِن كيان حرّ إلى جسد معذّب ومنضبط وفق الإيقاع الّذي تفرضه السّلطة، وهذا الجسد المعذّب هو غاية السّلطة ووسيلتها في الوقت نفسه، لبثّ مفاعيلها في الجسد الاجتماعيّ، وفرض السّيطرة على مختلف الفئات الاجتماعيّة.[ ][٢]

وقد عاش الشّعراء اللّصوص في العصر الأمويّ هذه التّجربة الّتي قادتهم إليها ممارستهم اللّصوصيّة، وخروجهم على السّلطة، والتّمرّد على قوانينها وأنظمتها. وكانت تجربتهم مع السّجون "شديدة الوقع على نفوسهم، ومصير من زُجّ بهذه السّجون القتل، أو يلقى أصناف العذاب على يد حرّاس عتاة تمّ انتقاؤهم بعناية لترويض جموع هؤلاء الثّائرين"[ ]. وقد عبّر الشّعراء اللّصوص[٣] عمّا يتعرّضون له من تهميش في مؤسّسة السّجن، وحاولوا تعرية ما تنطوي عليه من ممارسات إقصائيّة. ومن ثمّ، ظهر السّجن في شعرهم مؤسّسة عقابيّة، تهيمن عليها سلطة مرئيّة وغير مرئيّة، تتحكّم في أوجه حياة الفرد، وتسهم في إنتاج هامشيّته.

الدّراسات السّابقة:

تُعدّ دراسة "تجربة السّجن في الشّعر الأمويّ" للدّكتور محمد دوابشة (مجلّة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدّراسات، العدد الثّالث عشر، جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ= حزيران ٢٠٠٨م.) من الدّراسات الّتي تناولت السّجن في الشّعر العربيّ القديم؛ إذ ركّزت على إبراز صورة السّجن والسّجين، وبيّنت أسباب السّجن وموضوعات شعره. أمّا الدّراسة الحاليّة فتسعى إلى مقاربة هذا الشّعر من منظور ثقافيّ، للكشف عن دور السّجن، بوصفه مؤسّسة عقابيّة، في إنتاج الهامش الاجتماعيّ.

أهمّيّة البحث:

تتجلّى أهمّيّة البحث في تقديم تصوّر مغاير لما هو مألوف في الدّراسات الّتي تناولت تجربة السّجن في الشّعر العربيّ القديم، ولا سيّما في شعر اللّصوص؛ إذ يسعى إلى قراءة هذه التّجربة من منظور ثقافيّ، بغية الكشف عن النّسق السّلطويّ المهيمن على المؤسّسة العقابيّة، وإبراز دور الوصم الاجتماعيّ في إنتاج الهامش.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

_ الكشف عن أثر النّسق السّلطويّ المهيمن على المؤسّسة العقابيّة في تشكيل نفسيّة السّجين ووعيه، وتحويل جسده من جسد بيولوجيّ إلى جسد ثقافيّ خاضع لمنطق الضّبط والانضباط.

[]ينظر: دوابشة، د. محمد، جمادى الآخرة ١٤٢٩=حزيران ٢٠٠٨م، تجربة السجن في الشعر الأموي. مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الثالث عشر، ص٣١١.

[٢]ينظر: عبد الحق، طالبي، ٢٠١٠/٢٠١١، المنهج الأركيولوجي في فلسفة ميشال فوكو (رسالة ماجستير)، إشراف الدكتور دحدوح رشيد، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، الجزائر، ص١١١، ١١٢.

[٣]العنزي، صغير بن غريب عبد الله، ١٤٣١/١٤٣٢هـ، رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث الهجري (رسالة دكتوراه)، إشراف أ.د. صالح بن سعيد الزهراني، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، قسم الأدب، المملكة العربية السعودية، ص١٨٢.

_ إظهار دور المؤسّسة العقابيّة في إنتاج الوصم الاجتماعيّ، وإرساخ صور نمطيّة سلبيّة عن السّجناء في الوعي الجمعيّ.

_ إبراز دور الوعي الهامشيّ للّصوص في تعرية بنية المؤسّسة العقابيّة، ومقاومة سياساتها الإقصائيّة.

منهجيّة البحث:

يتّخذ البحث مقولات النّقد الثّقافيّ إطاراً منهجيّاً يساعد على قراءة النّصّ الشّعريّ بوصفه حادثة ثقافيّة، والكشف عن البنى المضمرة في الخطاب. كما يستفيد البحث من بعض تصوّرات ميشيل فوكو حول السّلطة والعقاب، ولا سيّما ما يتّصل بفهم السّجن بوصفه مؤسّسة عقابيّة، تقوم على نسق سلطويّ يسهم في إنتاج الهامش.

الدّراسة:

أوّلاً: المؤسّسة العقابيّة والنّسق السّلطويّ المهيمن:

اختبر الشّعراء اللّصوص السّجن، فخرج صوتهم المهمّش من موقع التّجربة وليس من خارجها، وقد عملوا من خلال حديثهم عن تجربتهم في السّجن على تعرية النّسق السّلطويّ المهيمن؛ إذ لم يعرضوا السّجن بوصفه فضاء مادّيّاً يقيّد حركتهم ويحجزهم فحسب، بل بوصفه _وفق التّصوّر الفوكوي للسّجن_ جهازاً انضباطيّاً شاملاً، يتحكّم في جميع أوجه الفرد وحالاته[ ]. فقد ظهر السّجن عندهم مؤسّسة عقابيّة، يهيمن عليها نسق سلطويّ، يعيد تشكيل هويّات الأفراد، ويتحكّم في علاقاتهم وقيمهم، ويقصي كلّ من لا يمتثل لشروطه إلى دائرة الهامش، فتسلب مكانته الاجتماعيّة، وينزع عنه الاعتراف الاجتماعيّ. ونجد ذلك حاضراً في قول السَّمْهريّ العُكليّ:[ ] [٢]

لَقَدْ جَمَعَ الحَدَّادُ بينَ عِصابَةٍ ... تَساءَلُ في الأَسْجانِ ماذا ذُنُوبُها[ ]

مُقَرَّنَةِ الأَقْدامِ في السِّجْنِ تَشْتَكِي ... ظَنابِيْبَ قَدْ أَمْسَتْ مُبِيْنَاً عُلُوبُها[ ]

إذا حَرَسِيٌّ قَعْقَعَ البابَ أُرْعِدَتْ ... فَرَائِصُ أَقْوامٍ وطارَتْ قُلُوبُها [ ]

نَرَى البابَ لا نَسْتَطِيْعُ شَيئاً وراءَهُ ... كَأَنَّا قُنِيٌّ أَسْلَمَتْها كُعُوبُها [ ]

بِمَنْزِلَةٍ أَمَّا اللَّئِيْمُ فَآمِنٌ ... بِها وكِرامُ القَوْمِ بَادٍ شُحُوبُها

---

[١]ينظر: فوكو، ميشيل، ١٩٩٠، *المراقبة والمعاقبة، ولادة السّجن*، ترجمة د. علي مقلد، مراجعة وتقديم مطاع صفدي، مركز الإنماء القوميّ، بيروت، ص ٢٣٩

[٢]طريفي، د. محمد نبيل، ١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م، *ديوان اللّصوص في العصرين الجاهليّ والإسلاميّ*، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت_ لبنان، ١/ ٢٧١، ٢٧٢.

[٣]العصابة والعصبة: الجماعة من النّاس ما بين العشرة إلى الأربعين، الأسجان: لعلّها جمع سجن، وهو الحبس.

[٤]مقرّنة الأقدام: الأقدام الّتي يدنو بعضها من بعض، سمّيت بذلك لتقاربها، الظّنابيب: جمع الظّنبوب، وهو العظم اليابس من السّاق، العلوب: جمع علب، وهو أثر الضّرب وغيره.

[٥]الحرسيّ: الحارس والسّجّان، الفرائص: جمع فريصة، وهي لحمة في وسط الجنب عند منبض القلب، قعقع الباب: حرّكه.

[٦]القنيّ: جمع القناة، وهي الرّمح، الكعوب: جمع الكعب، وهو ما بين العقدتين في القناة.

أَلَا لَيْتَنِي مِنْ غَيْرِ عُكْلٍ قَبِيْلَتِي وَلَمْ أَدْرِ ما شُبَّانُ عُكْلٍ وَشِيْبُها[ ]

قُبَيْلَةٌ لا يَقْرَعُ البابَ وَفْدُها بِخَيْرٍ ولا يَأْتِي السَّدادَ خَطِيْبُها[ ]

فإنْ تَكُ عُكْلٌ سَرَّها ما أَصابَنِي فَقَدْ كُنْتُ مَصْبُوباً عَلَى مَنْ يُرِيْبُها[ ]

تبدو الأبيات، على المستوى الظّاهريّ، حديثاً عن شاعر سجين يعيش آلام السّجن، وينقل مخاوفه ومخاوف رفاقه في الأسر، متحسّراً على خذلان قبيلته له. غير أنّ المستوى العميق للأبيات يكشف عن وعي هامشيّ بالبنية السّلطويّة الّتي تسيطر على الفرد وتشيّئه، وتعيد تشكيل هويّته وعلاقاته، فالشّاعر لا يكتفي بوصف معاناته داخل السّجن، بل يحاول تعرية النّسق السّلطويّ المهيمن على الفرد والجماعة معاً؛ إذ يبدأ أبياته بتسمية عناصر المؤسّسة العقابيّة بمسميّات تفضح الدّور الّذي تؤدّيه هذه المؤسّسة، فيستعيض عن كلمة (السّجّان) بكلمة (الحدّاد)، وتشير كلمة (الحدّاد) _هنا_ إلى أنّ المؤسّسة العقابيّة تتعامل مع الإنسان على أنّه شيء جامد بلا روح، وعلى أنّه مادّة قابلة للقولبة والتّشكيل، وليس ذاتاً إنسانيّة حرّة. وعلى الرّغم من دلالة الفعل (جمع) على التّأليف، فإنّ إسناد هذا الفعل إلى (الحدّاد) يكشف عنف المؤسّسة العقابيّة المتستّر خلف غطاء الإصلاح والتّأهيل والدّمج الاجتماعيّ. ثمّ إنّ اختيار لفظة (الأسجان) بدلاً من (السّجن) _رغم أنّ الأخيرة كانت أنسب لأنّ الجمع يكون في مكان واحد_ يدلّ على أنّ السّجن ليس مكاناً مادّيّاً محسوساً، بل شبكة من الضّوابط المتعدّدة، أو مؤسّسة عقابيّة، كما يشير هذا الاستخدام إلى دور هذه المؤسّسة في تفكيك الكيان الاجتماعيّ الواحد.

ثم يكشف الشّاعر عن وجود خلل في نظام العدالة؛ إذ إنّ السّجناء لم يُسجنوا بسبب ذنب اقترفوه بالضّرورة، بل على أسس انتقائيّة ظالمة، فجهلهم بذنبهم، وتساؤلهم عن سبب وجودهم "تساءل في الأسجان ماذا ذنوبها" يشير إلى منظومة ثقافيّة سلطويّة تغيّب العدالة الحقيقيّة.

وتتكشّف البنية السّلطويّة القمعيّة للمؤسّسة العقابيّة _أيضاً_ في الآثار الّتي تتركها القيود على أجساد المساجين "مبيناً علوبها"، فتعذيب الجسد والحفر عليه وسيلة من وسائل السّلطة لإخضاعه وترويضه. ولا تكتفي المؤسّسة العقابيّة بتعذيب جسد السّجين، بل يمتدّ تعذيبها إلى نفسه؛ إذ يتحوّل الخوف إلى بنية داخليّة في الجسد نفسه، فيرتجف قبل أن يفكّر "أرعدت فرائص أقوام وطارت قلوبها"، وهذا الارتجاف يشير إلى نجاح السّلطة في إعادة تشكيل نفسيّة السّجين، بحيث يصبح صوت الباب حضوراً للسّلطة حتّى في غيابها، ليتحوّل السّجين إلى كائن هشّ، يعيش تحت وطأة سلطة غير مرئيّة، ويفقد السّيطرة على جسده، ويؤكّد تنكير لفظة (أقوام) هذه الهشاشة، فهو يحيل على جماعة مهمّشة، أفرادها بلا ملامح أو أسماء، وغير معترف بهم من قبل المركز.

كما يشير تشبيه السّجناء بالرّماح الّتي انكسرت الأنابيب الّتي تجمع بين عقدها، فأصبحت جوفاء "كأنّا قنيّ أسلمتها كعوبها" إلى الاستلاب والتّهميش الّذي يعيشونه، ويكشف عن دور السّلطة في تشييء السّجناء، وتفكيك بنيتهم النّفسيّة والاجتماعيّة في آن معاً؛ إذ يفقدون فاعليّتهم، ويُعزلون، ويُقصون عن دائرتهم الاجتماعيّة،

[١]الشِّيب: جمع الأشيب، وهو ذو الشّيب.

[٢]قُبَيلة: تصغير قبيلة.

[٣]يريبها: يؤذيها.

فيغدون كالرّماح الّتي كانت رمزاً للقوّة، ثمّ انكسرت، وفقدت وظيفتها، ما يشير إلى دور المؤسّسة العقابيّة في إنتاج إنسان مهمّش، عاجز وفارغ، ومنزوع الإرادة والحيويّة.

ويطال تأثير النّسق السّلطويّ المهيمن على المؤسّسة العقابيّة سلّم القيم الأخلاقيّة؛ إذ يعاد ترتيب القيم في المؤسّسة بما يتوافق مع شروط هذا النّسق، ليصبح موضع الكريم في أدنى السّلّم الاجتماعيّ، ويُقصى إلى دائرة الهامش "كرام القوم بادٍ شحوبها"، أمّا اللّئيم فيُقرَّب إلى دائرة المركز، ويبقى آمناً ومُعترَفاً به "أمّا اللّئيم فآمن بها". ذلك أنّ الكريم يمثّل تهديداً محتملاً، لأنّه قد يحمل مشروعاً معارضاً وقيماً تهدف إلى تقويض النّسق السّلطويّ المهيمن، أمّا اللّئيم فلا يشكّل تهديداً؛ إذ يمكن تدجينه وترويضه حسب الشّروط الّتي يفرضها النّسق.

كما يمتدّ تأثير النّسق السّلطويّ إلى ما هو أبعد من حدود السّجن، ليطال البنى الاجتماعيّة، فتخضع العلاقات بين الأفراد للبنية السّلطويّة ذاتها الّتي تمارس القمع داخل المؤسّسة العقابيّة؛ إذ يعبّر الشّاعر من خلال التّمنّي "ألا ليتني من غير عكل قبيلتي" عن إحساسه بالعزلة والاغتراب والتّهميش ضمن قبيلته الّتي تخلّت عنه، ولم تقدّم له الدّعم والمساعدة، ما جعلها تبدو صغيرة في نظره (قبيّلة). وموقف الشّاعر من قبيلته "أملته عليه حاله في داخل السّجن من جهة وأملته على قبيلته _من جهة ثانية مثلما يظهر_ مواقفها من السّلطة[...] ومواقف السّلطة منها"[ ]؛ إذ لا حماية لمن لا يخضع لشروط النّسق السّلطويّ المهيمن ويشذّ عنها. وعلى الرّغم من امتلاك الشّاعر قيم الوفاء والإخلاص والتّضحية "فقد كنت مصبوباً على من يريبها"، فإنّ هذه القيم لم تمنحه الاعتراف الاجتماعيّ داخل قبيلته، لكون هذه القيم تقوّض النّسق السّلطويّ المهيمن، ما يعني أنّ الاعتراف الاجتماعيّ أصبح مبنيّاً على التّماهي مع النّسق السّلطويّ، لا على القيم الّتي يحملها الفرد.

ويظهر عُطارد بن قُرّان هيمنة النّسق السّلطويّ على المؤسّسة العقابيّة، واتّساع هذه الهيمنة لتشمل نفسيّة السّجين ووعيه، وتعيد تشكيل علاقاته الاجتماعيّة خارج حدود السّجن، وذلك في قوله:[ ] [٢]

يَطُولُ عليَّ اللَّيلُ حَتَّى أَمَلَّهُ فَأَجْلِسُ والنَّهدِيُّ عِنْديَ جالِسُ[ ]

كِلانا بهِ كَبْلانِ يَرْسِفُ فيهما ومُسْتَحْكِمُ الأَقْفَالِ أَسْمَرُ يابِسُ[ ]

لهُ حلقاتٌ فيه سُمْرٌ يُحِبُّها الـ ـعُنَاةُ كما حَبَّ الظِّماءَ الخوامِسُ[ ]

إذا ما ابنُ صَبَّاحٍ أَرَنَّتْ كُبُولُهُ لَهُنَّ على ساقيّ وَهْناً وساوسُ[ ]

---

[١]محمود، عبد المطلب، ٢٠٠٣، *الإبداع والاتّباع في أشعار فتّاك العصر الأمويّ*، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ص٦٠، ٦١.

[٢]طريفي، د. محمد نبيل، *ديوان اللّصوص في العصرين الجاهليّ والإسلاميّ*، ١٩/٢.

[٣]النّهدي: أحد رفاقه السّجناء.

[٤]الكبل: القيد، رسف في القيد: مشى فيه رويداً.

[٥]العناة: جمع العاني، وهو الأسير في قيده هنا، الخوامس: الإبل ترد الماء في اليوم الخامس، الظّماء: العطاش.

[٦]ابن صبّاح: أحد رفاقه السّجناء، أرنّت: رنّت وصوّتت، الكبول: جمع كبل، وهو القيد، الوهن: نحو نصف اللّيل أو بعد ساعة منه. أراد: كلّما تحرّكت قيود رفيقه انتابته وسوسة.

تذكَّرْتُ هلْ لي منْ حَمِيمٍ يَهمُّهُ بِنَجْرانَ كِبْلايَ اللّذانِ أُمارِسُ [ ]

وذُوْنيَ مِنْ نجرانَ رُكْنٌ عَمَرَّدٌ ومُعْتَلِجٌ مِنْ نَخْلِهِ مُتكاوِسُ [ ]

يبدأ الشّاعر بتصوير اللّيل في السّجن بوصفه زمناً نفسيّاً قاهراً، فهو زمن طويل فارغ "يطول عليّ اللّيل حتى أملّه"، تهيمن فيه مشاعر الملل والخواء والضّجر على الذّات، فتتعطّل فاعليّتها وتُشلّ حركتها. وعلى الرّغم من أنّ اللّيل ارتبط في ثقافة الصّعلكة بمعاني الحرّيّة والحركة والفاعليّة والمبادرة، لكونه زمن الانفلات من الرّقابة الاجتماعيّة؛ إذ يمتلك فيه اللّصّ سيطرته على جسده ورغباته ومساره، ويحقّق فيه ما يعجز عن تحقيقه في النّهار،[ ] فإنّ هذه الدّلالات الثّقافيّة تنقلب رأساً على عقب، بفعل تدخّل النّسق السّلطويّ، فتعيد السّلطة، عبر مؤسّساتها العقابيّة، تنظيم الزّمن ذاته وفقاً لشروطها، فيتحوّل ليل اللّصّ من زمن للانفلات والحرّيّة إلى زمن اغتراب وعجز وفراغ، ما يكشف عن قدرة السّلطة على السّيطرة على وعي السّجين وإدراكه للزّمن.

ويمتدّ تأثير النّسق السّلطويّ إلى الجسد، فحالة الجلوس المسيطرة على جسد الشّاعر وجسد رفيقه تكشف عن نجاح السّلطة في التّحكّم في الجسد وضبطه، كما أنّ وجود الرّفيق العاجز غير المتحرّك (النّهديّ)، بالإضافة إلى الشّاعر العاجز يكشف عن إنتاج السّلطة لجماعة هامشيّة فاقدة للفاعليّة والإرادة؛ إذ إنّ جلوس الشّاعر ورفيقه لا يعود إلى رغبتهما في ذلك، أو إلى إرادة حرّة منهما، فهذا الأمر مفروض عليهما بسبب وجود القيود المانعة من الحركة، وفي هذه القيود يتجلّى البعد المادّيّ للسّلطة؛ إذ تتحوّل من كونها منظومة مجرّدة إلى ممارسة محسوسة، تُزرع في الجسد ذاته، وتقيّده، وترسم حدود حركته، لتقتصر حركة الجسد على المشي البطيء "يرسف فيهما". ثمّ إنّ التّشابه بين حالة الشّاعر في السّجن وحالة رفيقه (النّهديّ) يشير إلى أنّ المؤسّسة العقابيّة تلغي فرديّة السّجناء، وتحوّلهم إلى نسخ مكرّرة، ومتشابهة في العجز، وتعيد إنتاج هامشيّتهم وفق الإيقاع الّذي تفرضه السّلطة، فإلغاء الفرديّة من آثار النّسق السّلطويّ الّذي يستهدف الأجساد، ويحوّل الأجساد الحرّة إلى موضوعات خاضعة للمراقبة والضّبط، أو إلى أجساد طيّعة وممرّسة[ ]، على حدّ تعبير فوكو.[٤]

ويبني الشّاعر، من خلال تشبيه حبّ السّجناء للقيود بحبّ الخوامس للظّماء في البيت الثّالث "يحبّها العناة كما حبّ الظّماء الخوامس"، مفارقة ثقافيّة؛ إذ كان من المفترض، أن يكره السّجناء قيودهم كما تكره الإبل حالة العطش وهي في طريقها إلى الماء، غير أنّ الشّاعر يعمد إلى تصوير السّجناء كأنّهم يألفون القيد أو يتعلّقون به، ليشير إلى علاقات قسريّة يفرضها النّسق السّلطويّ المهيمن؛ إذ يصبح تحمّل القهر، وعدم الاعتراض عليه شرطاً من شروط البقاء، فكما تتحمّل الإبل العطش، وتواصل مسيرها مضطرّة، أملاً في الوصول إلى الماء، يُجبر السّجناء على التّعايش مع القيد، وعدّه جزءاً طبيعيّاً من ذواتهم، لعدم وجود خيار آخر لديهم داخل المؤسّسة

[١]الحميم: القريب الّذي تودّه ويودّك، نجران: اسم مكان، وكان حُبس فيها.

[٢]العمرّد: الطّويل، وأراد طول المسافة بينه وبين أحبّته، المعتلج: الأرض الّتي استأسد نخلها والتفّ وكثر، تكاوس النّخل والشّجر: كثر والتفّ.

[٣]ينظر: عقيلي، م. انتصار أحمد يعقوب، ٢٠١٩م، *المتغيّر الأسلوبيّ (اللّيل) في شعر الصّعاليك. مجلّة علوم اللّغة العربيّة وآدابها*، الجزائر، المجلّد ١١، العدد ١، ص٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٧٣. وينظر: عليمات، د. يوسف، ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م، *النّسق الثّقافيّ، قراءة في أنساق الشّعر العربيّ القديم*، ط١، عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوريع، إربد، ص ١٢٩.

[٤]ينظر: فوكو، ميشيل، *المراقبة والمعاقبة، ولادة السجن*، ص١٥٨، ١٥٩.

العقابيّة. ما يدلّ على قدرة النّسق السّلطويّ على تطبيع العنف، وتحويل القهر إلى حالة مألوفة وعاديّة في وعي الفئات المهيمَن عليها، وترويض الذّوات، بجعلها تتقبّل استمرار الألم، في انتظار خلاص قد يتحقّق، وقد لا يتحقّق أبداً.

وتشير الوساوس الّتي يخلقها القيد في نفس الشّاعر إلى أنّ النّسق السّلطويّ له قدرة على التّغلغل في النّفس لا الجسد فحسب؛ إذ إنّ رنّة كبول ابن صبّاح، وما تثيره من قلق ووساوس في نفس الشّاعر، تشير إلى حضور السّلطة في نفسيّة السّجين، من دون الحاجة إلى ممارسة عنف مباشر وظاهر عليه، فالقيود لم تعد تخصّ جسد سجين بعينه، بل تحوّلت إلى تجربة قهر مشتركة، تتقاسمها الأجساد والأنفس داخل فضاء السّجن، الأمر الّذي يحوّل السّجين إلى ذات تراقب وتضبط نفسها بنفسها، وتستجيب لأيّة إشارة على نحو لا إراديّ، وهذا من مفاعيل النّسق السّلطويّ المهيمن على المؤسّسة العقابيّة، فالسّجن _كما يقول فوكو_ جهاز إداريّ، يشكّل ماكينة لتغيير الأفكار (النّفوس)[ ]، فهو يجعل المخاوف والوساوسَ ملازمة للسّجين، تستثار مع أقلّ حركة.

ثمّ يتساءل الشّاعر عن إمكانيّة وجود حميم يهمّه أمر القيود الّتي تكبّله، كاشفاً بذلك عن امتداد مفعول النّسق السّلطويّ إلى ما هو خارج حدود السّجن؛ إذ إنّ السّلطة تعمل على تعطيل فاعليّة الرّوابط الاجتماعيّة، وزعزعة الثّقة بإمكانيّة وجود التّضامن الاجتماعيّ، فالشّاعر في سؤاله لا يفترض وجود الحميم، بقدر ما يشكّ في وجوده أصلاً؛ إذ يتجلّى التّفكّك الاجتماعيّ، على المستوى الرّمزيّ، في الطّريق الفاصل بين الشّاعر وأهله، فهو طريق طويل معقّد، تتشابك فيه الأشجار وتلتفّ. وبهذا يظهر النّسق السّلطويّ بوصفه قوّة تعيد تشكيل المجال الاجتماعيّ، فتفصل السّجين عن محيطه، وتفرغ العلاقات الاجتماعيّة من قدرتها على تقديم الحماية والدّعم.

كما تتجلّى هيمنة النّسق السّلطويّ على المؤسّسة العقابيّة في أنّ مهمّة هذه المؤسّسة، كما يعرضها اللّصّ السّجين، لا تقتصر على تقييد الأجساد، وتفكيك العلاقات الاجتماعيّة، بل تشمل _أيضاً_ تنظيم العلاقة بين الأفراد داخل فضاء السّجن، بحيث تقوم على عدم التّكافؤ، وعلى تراتبيّة سلطويّة، فهي علاقة بين حاكم مهيمن ومحكوم خاضع ومهيمَن عليه، ونجد ذلك في قول عُطارد بن قُرّان:[ ][٢]

يَقُودُني الأَخْشَنُ الحدَّادُ مُؤْتَزِراً يَمْشِي العِرَضْنَةَ مُختالاً بِتَقْيِيْدِي[ ]

إنّي وأَخْشَنَ في حِجْرٍ لَمُخْتَلِفَا حالٍ وما ناعِمٌ حالاً كَمَجْهُودِ[ ]

ونَحْنُ في عُصْبَةٍ عَضَّ الحديدُ بِهِمْ مِنْ مُشْتَكٍ كَبْلَهُ منهمْ ومَصْفُوْدِ[ ]

يبرز في هذه الأبيات وعي هامشيّ بالبنية السّلطويّة الّتي تهيمن على المؤسّسة العقابيّة؛ إذ يتحدّث الشّاعر من موقعه الهامشيّ في هذه المؤسّسة، ويتجلّى هذا الموقع لغويّاً في مجيء الضّمير الدّالّ على الشّاعر في موضع

---

[١]ينظر: المصدر السابق، ص١٤٥.

[٢]طريفي، د. محمد نبيل، *ديوان اللّصوص في العصرين الجاهليّ والإسلاميّ*، ١٨/٢.

[٣]الأخشن: لعلّه اسم السجّان الّذي حبسه، مؤتزراً بإزاره، والإزار: ثوب يحيط بالنّصف الأسفل من البدن، يمشي العرضنة: إذا مشى مشية في شقّ فيها بغي ونشاط.

[٤]حجر: اسم موضع.

[٥]العصبة: الجماعة، وأراد مجموعة مساجين، عضّ الحديد بهم: لزمهم ولزق بهم، الكبل: القيد، المصفود: الذي وُضعت الأصفاد في يديه.

المفعول به (الياء في الفعل يقودني)، في مقابل مجيء (الأخشن) _بوصفه ممثّلاً للسّلطة_ في موضع الفاعل، وتكشف هذه البنية النّحويّة عن فاعليّة السّلطة، وعن الاستلاب الّذي تعيشه الذّات الشّاعرة، كما تشير إلى وجود علاقة غير متكافئة تقوم على الهيمنة داخل المؤسّسة العقابيّة.

ويأتي وصف الشّاعر الأخشنَ _ممثّل السّلطة_ بالحدّاد ليشير إلى وعي هامشيّ بأنّ السّلطة في المؤسّسة العقابيّة، تشيّئ السّجين، فهي تتعامل معه بوصفه مادّة قابلة للتّشكيل والإخضاع وفق إرادتها، وليس بوصفه إنساناً ذا إرادة وكيان. كما أنّ جملة الحال (يمشي العرضنة)، والحال (مختالاً) تظهران البعد الاستعراضيّ للسّلطة؛ إذ إنّ التّقييد لا يُمارَس بوصفه تنفيذاً لعقوبة ضمن المؤسّسة فحسب، بل يؤدّى بوصفه فعلاً لتأكيد الهيمنة والتّفوّق والاستعلاء على الآخر، ما يشير إلى تحكّم النّسق السّلطويّ في العلاقات داخل المؤسّسة العقابيّة.

كما تكشف الثّنائيّة الضّدّية (ناعم/ مجهود) عن تراتبيّة سلطويّة، يعاد إنتاجها داخل المؤسّسة العقابيّة؛ إذ يمنح الرّخاء لمن يتماهى مع النّسق السّلطويّ، وينتمي إلى أجهزته القمعيّة، أمّا من لا يتماهى معه فيُهمَّش، وتُسلب مكانته وإرادته. ويدلّ استخدام الشّاعر صيغة اسم الفاعل (ناعم) على الفاعليّة والسّيطرة، أمّا صيغة اسم المفعول في (مجهود، مصفود) فتدلّ على المفعوليّة والاستلاب والتّهميش، ما يشير إلى أنّ القهر السّلطويّ لا يقتصر على القيود والأغلال واستخدام العنف المباشر، بل يمتدّ ليهدم الإرادة، ويرسخ العجز والاستلاب، فينتج إنساناً هامشيّاً خاضعاً.

ويوسّع الشّاعر رؤيته للقهر السّلطويّ الممارس داخل المؤسّسة العقابيّة، ويظهر ذلك في استخدامه الضّمير (نحن)، ما يدلّ على أنّ الهامش الّذي تنتجه المؤسّسة العقابيّة ليس فرديّاً بل جماعيّاً. وتشير الاستعارة في قوله:(عضّ الحديد) إلى أنّ العنف السّلطويّ متجذّر في بنية المؤسّسة العقابيّة، ومتغلغل فيها. كما أنّ مجيء كلمة (الحديد) فاعلاً للفعل (عضّ) يشير إلى فاعليّة السّلطة الّتي تترك آثارها محفورة على الأجساد، لتضمن بذلك استمرار الهيمنة عليها.

ثانياً: المؤسّسة العقابيّة وإنتاج الوصمة الاجتماعيّة:

يكشف خطاب اللّصّ السّجين الشّعريّ عن دور المؤسّسة العقابيّة في تشكيل الوصمة الاجتماعيّة، وإعادة إنتاج الإنسان المهمّش، فصورة السّجين السّلبيّة الّتي ترسمها المؤسّسة العقابيّة لا تمحى بخروجه من السّجن، بل تبقى عالقة في المخيال الجمعيّ، فتتحوّل بذلك هويّته إلى هويّة موصومة. وبما أنّ الوصمة توجد عند "قيام قناعات ثقافيّة سائدة بربط الأشخاص الموسومين بخصائص غير مرغوب فيها، أو بصور نمطيّة سلبيّة"[ ]، فإنّها تجعل حاملها يبدو ناقصاً ومختلفاً في أعين الآخرين، وهذا ما يسوّغ إبقاءه في موقع هامشيّ، ويظهر ذلك في قول عُطار بن قُرّان:[ ][٢]

كأنّما أهْلُ حِجْرٍ يَنْظرونَ مَتَى ... يَرَوْنَنِي خارِجاً طَيْرَ اليَنادِيْدِ[ ]

[١] ج. لينك، بروس؛ ك. فيلان، جو، شتاء ٢٠٢٠، *مفهمة الوصمة*، ترجمة ثائر ديب. *مجلّة عمران*، المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات، الدّوحة، المجلّد ٨، العدد ٣١، ص١٤٦.

[٢]طريفي، د. محمد نبيل، *ديوان اللّصوص في العصرين الجاهليّ والإسلاميّ*، ١٨/٢.

[٣]ينابيد: متفرّقة.

طَيْرٌ رأَتْ بازياً نَضْحُ الدِّماءِ بهِ أَوْ أُمَّةٌ خَرَجَتْ رَهْواً إلى عِيْدِ [ ]

يظهر في قول الشّاعر تأثير المؤسّسة العقابيّة في إنتاج صورة نمطيّة سلبيّة عن السّجين، تلتصق به بعد خروجه من السّجن، وتجعله يبدو في أعين النّاس تهديداً محتملاً للمجتمع، ومن الواجب عزله وتهميشه. وهذه الصّورة النّمطيّة الّتي لا تزول بانتهاء العقوبة في السّجن، تجعل المجتمع يغفل عن الجراح والنّدوب الّتي خلّفتها المؤسّسة العقابيّة في ذات السّجين، ويرفض التّعاطف معه. ففي الصّورة الّتي يسوقها الشّاعر لأهل حجر يتجلّى تأثير المؤسّسة في تشكيل نظرة المجتمع للسّجين بعد خروجه؛ إذ يشبّه حالهم بعد خروجه من السّجن بحال طيور تفرّقت بعد رؤيتها بازاً يرشح بالدّماء. فالطّيور تنفر من الباز استناداً إلى صورته بوصفه طائراً جارحاً، لكنّها لا تنتبه، أو تتغافل عن جراحه الّتي جعلته طائراً منتهكاً، وغير مكتمل. وعلى هذا النّحو، يخاف أهل حجر من الشّاعر بعد خروجه، وينظرون إليه على أنّه خطر يهدّد وجودهم، وليس ضحيّة لسلطة مارست عنفها عليه، وتركته مثقلاً بالنّدوب.

أمّا في الصّورة الثّانية "أو أمّة خرجت رهواً إلى عيد" فيشير إلى نظرة المجتمع إليه على أنّه موضوع للمشاهدة، وإلى حالة اللّامبالاة الجماعيّة المنظّمة تجاه ما يحمله من ألم، فالمجتمع لا يكتفي بمراقبة الخارج من السّجن، بل يتعامل مع تجربته القاسية على أنّها موضوع يُعرض للمشاهدة، دون وجود مشاركة وجدانيّة، رغم ما تستدعيه حالته من تعاطف إنسانيّ. وتكشف هذه الصّورة أنّ أثر الصّورة النّمطيّة الّتي أرسختها المؤسّسة العقابيّة في المخيال الجمعيّ لا يقتصر على الخوف من السّجين، والنّظر إليه بريبة، بل يمتدّ إلى التّغافل عن معاناته، وعدم الاعتراف بجرحه، وإلى عزله عن الجماعة. وبذلك يبيّن البيتان أنّ المؤسّسة العقابيّة لا تنتج القهر داخل أسوارها فحسب، بل تخلّف أثراً ثقافيّاً، يجعل المجتمع شريكاً في معاقبة السّجين بعد خروجه من السّجن، وذلك عبر تهميشه، والنّظر إليه بوصفه كائناً مختلفاً ومخيفاً ومريباً.

والوصمة الاجتماعيّة الّتي تنتجها المؤسّسة العقابيّة، والّتي تبقى ملازمة للسّجين حتّى بعد خروجه من السّجن، تجعله خارج دائرة النّقاء الاجتماعيّ، كما تجعل إبقاءه في مرتبة دونيّة هامشيّة أمراً مشروعاً ومقبولاً، ونجد ذلك حاضراً عند جحدر العكليّ؛ إذ يقول مخاطباً أصحابه، وهو في السّجن:[ ] [٢]

أَقُولُ لِلصَّحْبِ فِي البَيْضاءِ دُونَكُمُ مَحَلَّةً سَوَّدَتْ بَيْضَاءَ أَقْطارِيْ [ ]

مَأْوَى الفُتُوَّةِ لِلأَنْذَالِ مُذْ خُلِقَتْ عِنْدَ الكِرَامِ مَحَلُّ الذُّلِّ وَالعارِ [ ]

كأنَّ ساكِنَها مِنْ قَعْرِها أَبَداً لَدَى الخُرُوجِ كَمُنْتَاشٍ مِنَ النَّارِ [ ]

[١]النّضح: الرّشح، وأراد ريشه وقوادمه، الرّهو: السّير السّهل.

[٢]طريفي، د. محمد نبيل، *ديوان اللّصوص في العصرين الجاهليّ والإسلاميّ*، ١٦١/١.

[٣]الصّحب: جمع صاحب، سوّدت: جعلتها سوداء، الأقطار: جمع قطر، وهو جملة من البلاد والنّواحي، البيضاء: بيضاء البصرة، وهو المخيس.

[٤]الفتوّة: الرّجولة والنّجدة، الأنذال: جمع نذل، وهو الخسيس الحقير.

[٥]قعر الشّيء: منتهى عمقه، المنتاش: من النّتش، وهو إخراج الشّوك.

يبدو السّجن في الأبيات فضاء سلطويّاً، تعاد فيه صياغة صورة الإنسان وهويّته؛ إذ تكشف الثّنائيّات الضّدّيّة عن دور المؤسّسة العقابيّة في إنتاج الهامش، من خلال التّرويج لصور نمطيّة عن السّجناء، وإعادة تشكيل ذواتهم بما يتّفق مع نهجها الإقصائيّ.

تأتي الثّنائيّة الضّدّيّة (البياض/السّواد) في البيت الأوّل لتؤكّد أنّ السّجن ليس مجرّد مكان مادّيّ، بل هو بنية سلطويّة تنتج الوصمة الاجتماعيّة، الّتي تتجاوز حدود العقوبة الجسديّة للفرد، لتبلغ سمعته ومكانته الاجتماعيّة. فالسّلطة، من خلال مؤسّساتها العقابيّة، تغلّف ذات السّجين البيضاء بالسّواد "سوّدت بيضاء أقطاري"، وهذا السّواد يرمز _هنا_ إلى فقدان النّقاء الاجتماعيّ، ووقوع الذّات في دائرة التّلوّث والسّلبيّة والمغايرة، الأمر الّذي يشرعن عزل السّجين، وتهميشه، ووضعه في مرتبة دونيّة ضمن التّراتبيّة الاجتماعيّة "من قعرها أبداً".

ويحاول الشّاعر من خلال مخاطبة أصحابه، وذكره بياض أقطاره الأصليّ (بيضاء أقطاري) _بمعناه الرّمزيّ الدّالّ على النّقاء_ مقاومة الصّورة النّمطيّة السّوداء الّتي تروّج المؤسّسة لها؛ إذ يسعى الشّاعر من خلال ذلك إلى إثبات انتمائه إلى دائرة النّقاء الاجتماعيّ، وتأكيد امتلاكه للهويّة النّقيّة الّتي تحاول المؤسّسة العقابيّة محوها وتشويهها. كما أنّه بذلك يعرّف ذاته تعريفاً مضادّاً للتّعريف الّذي أطّرته السّلطة فيه من خلال مؤسّستها العقابيّة، محاولاً الحصول على اعتراف من الآخر، واستعادة علاقاته الاجتماعيّة الّتي تفكّكت بسبب السّجن.

وتؤدّي الثّنائيّة الضّدّيّة (الأنذال/ الكرام) في البيت الثّاني دوراً في تعرية الخطاب الإصلاحيّ الّذي تتبنّاه المؤسّسة العقابيّة؛ إذ يكشف الشّاعر من خلالها عن انقلاب القيم داخل فضاء السّجن. فالمكان الّذي يُفترض _وفق خطاب السّلطة_ أن يكون مأوى الفتوّة ومصنع الرّجال، يتحوّل في نظر الشّاعر إلى فضاء تهان فيه الكرامة الإنسانيّة، ويُعاد فيه تعريف الأخلاق بما ينسجم مع النّسق السّلطويّ المهيمن، فترتفع منزلة الأنذال، ويُقصى الكرام إلى الهامش "محلّ الذلّ والعار"، في إشارة إلى أنّ المؤسّسة العقابيّة لا تُصلح بقدر ما تعيد إنتاج الهامش، عبر منح القيمة والمكانة لمن يمتثل لمفاهيمها المنحرفة، وتجريد الكرام من مكانتهم. كما يظهر الشّاعر من خلال هذه الثّنائيّة الضّدّيّة معارضته لهذا الانقلاب القيميّ، وتمسّكه بمعنى الكرم قبل أن يطاله التّشويه المؤسّساتي، رافضاً بذلك أن يُعاد تشكيل هويّته وفق المعايير الّتي تفرضها السّلطة داخل فضاء السّجن.

يكمل الشّاعر من خلال الصّورة التّشبيهيّة في البيت الثّالث تعريته للمؤسّسة العقابيّة الّتي تدّعي إصلاح الأفراد عن طريق العقوبة؛ إذ يشبّه حال السّجين عند الخروج من السّجن بحال من ينتاش من النّار، وهذه الصّورة تحمل دلالة ثقافيّة بالإضافة إلى دلالتها الظّاهرية على التّعذيب الجسديّ الّذي يتعرّض له السّجين، والألم الّذي يحمله حتّى بعد خروجه، فهي تشير ضمنيّاً إلى أنّ السّجين لا يخرج إنساناً كاملاً، بل إنساناً تعرّضت هويّته الفرديّة للمحو والإذابة والطّمس، فهو حامل لوصمة، وهي علامة دائمة كالحرق، تشير إلى انتمائه الدّائم إلى الهامش "من قعرها أبداً".

ويحاول اللّصّ السّجين مقاومة الوصمة الاجتماعيّة، والصّورة النّمطيّة السّالبة الّتي التصقت به بعد تجربة السّجن، عبر استحضار صورة تظهر فاعليّته قبل دخوله السّجن. يقول عطارد بن قُرّان:[ ][١]

خليلَيَّ منْ عُلْيا نِزارٍ سُقِيْتُما وأُعْفِيْتُما مِنْ سَيِّئِ الحَدَثانِ [ ][٢]

[١]طريفي، د. محمد نبيل، *ديوان اللّصوص في العصرين الجاهليّ والإسلاميّ*، ٢١/٢.

[٢]عليا نزار: أعلاها، الحدثان: ما يحدث من المصائب.

أَلَمْ تُخْبِراني اليومَ أَنْ قَدْ عَرَفْتُما بِذِي الشِّيْحِ داراً ثمَّ لا تَقِفانِ[ ]

لَقَدْ هَزِئَتْ منّي بنَجرانَ أنْ رَأَتْ مَقامِيَ في الكَبْلينِ أمُّ أَبانِ[ ]

كأَنْ لم تَرَيْ قبلي أَسِيراً مُكبَّلاً ولا رَجُلاً يُرْمَى بهِ الرَّجَوانِ[ ]

كأَنّي جَوادٌ ضَمَّهُ القَيْدُ بَعْدَما جَرَى سابِقاً في حَلْبَةٍ ورِهانِ[ ]

يبدأ الشّاعر خطابه بنداء موجّه إلى خليليه، يحمل دعاء لهما بالسّقيا، والنّجاة من مصائب الدّهر، في استدعاء لقيم التّواصل الاجتماعيّ والمودّة. ثمّ ينتقل في البيت الثّاني إلى توجيه عتاب ولوم مبطّن لهما على عدم وقوفهما على الدّار الّتي عرفاها بذي الشّيح "ثمّ لا تقفان"، ويكشف هذا العتاب عن قلق الشّاعر من غياب الاعتراف الاجتماعيّ به؛ إذ يغدو الوقوف على الدّار، هنا، فعلاً رمزيّاً، يشير إلى حضورها الدّائم في الذّاكرة الجمعيّة، وإلى كونها مكاناً ذهنيّاً، وليست مكاناً ماديّاً محسوساً فحسب، فـ"المكان بوصفه أثراً ليس قيمةً جغرافيّة ولكنّه ذاكرةٌ تسكن في الوجود الذّهنيّ بعد أن غادرت الوجود العينيّ،"[ ] ومن ثمّ فإنّ إهمال الوقوف علىْ الدّار، يدلّ على انطماسها، وانطماس من كان يسكنها من الذّاكرة الجمعيّة، وفقدان مكانتهما الرّمزيّة، ويعزّز هذا المعنى تنكير لفظة (دار)، الّذي يفقد الدّار خصوصيّتها، ويرمز، في المقابل، إلى تراجع حضور الشّاعر نفسه خارج فضاء السّجن.

ثمّ يكشف الشّاعر عن نظرة الآخر/ المجتمع إليه، عبر عرضه سخرية (أمّ أبان) منه بسبب القيد الّذي يكبّله؛ إذ ترمز (أمّ أبان) إلى الوعي الجمعيّ الّذي يستبطن منطق المؤسّسة العقابيّة، ويعيد إنتاجه على هيئة وصمة اجتماعيّة، تختزل هويّة السّجين في تجربة السّجن، والوضع القسريّ المفروض عليه. وفي ردّ الشّاعر على هذا الاستهزاء، لا يسعى إلى نفي القيد أو إنكاره، بل يعمد إلى مساءلة البنية الاجتماعيّة ذاتها الّتي تعيد إنتاج الوصم، وتتعامل مع السّجين بوصفه خارجاً على المعايير الاجتماعيّة، وصاحب هويّة ناقصة، فيبيّن أنه ليس حالة استثنائيّة تستوجب الوصم، بل فرد رازح تحت وضع قسريّ يشترك فيه مع غيره من السجناء، فلا مسوّغ للانتقاص منه وإقصائه ووصمه.

ثمّ يؤكّد الشّاعر زيف النّظرة الاجتماعيّة الّتي تنتقص منه، عبر استحضار هويّته الأصليّة السّابقة على تجربة السّجن، وذلك من خلال تشبيه تمثيليّ، يشبّه فيه حاله بعد التّقييد، بحال الجواد الّذي قُيِّد بعد أن كان يجري سابقاً، ويكشف هذا التّشبيه عن مقاومة الشّاعر لمحاولات اختزاله في وضعه الرّاهن؛ إذ يرسم حدّاً فاصلاً بين

---

[١]ذو الشّيح: موضع باليمامة، وذو الشّيح أيضاً موضع بالجزيرة.

[٢]هزئت: سخرت، الكبل: القيد.

[٣]الرّجوان: النّاحيتان، وأصله أنّ الدّلو إذا استقى بها، فتارة يرمي بها هذا الرّجا، وأخرى هذا، فشبّه به الرّجل المستذلّ المزال من وجه إلى وجه.

[٤]ضمّه القيد: أي وضع في القيد، الحلبة: خيل تجمع للسّباق من كلّ أوب، الرّهان: السّباق.

[٥]الغذّامي، عبد الله، ٢٠٢٣، *إشكالات النّقد الثّقافيّ، أسئلة في النّظريّة والتّطبيق*، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء_ المغرب، ص١١١

الذّات قبل دخول السّجن والذّات بعده، ليؤكّد بذلك أنّ هويّته لا يمكن للقيد أن يلغيها كلّيّاً، وإن عطّل هذا القيد فاعليّة ذاته مؤقّتاً.

ثالثاً: مقاومة اللّصّ السّجين لسياسات المؤسّسة العقابيّة:

يحاول اللّصّ السّجين في خطابه الشّعريّ مقاومة ما تروّج له السّلطة عن دور المؤسّسة العقابيّة الإصلاحيّ، فيعرّي زيف ادّعائها بإصلاح المجتمع والحفاظ على نظامه عبر العقاب. وإذا كانت السّلطة تنظر إلى اللّصوص على أنّهم "من المفسدين في الأرض، والعابثين بالنّظام والخارجين على القانون، وأخذت تطاردهم، وتجتهد في طلبهم، فارضة المكافآت المغرية لمن يساعد في القبض عليهم"[ ]. فإنّ هذه السّلطة، في وعي[١] اللّصّ السّجين، لا تُصلح من خلال مؤسّساتها العقابيّة، بقدر ما تنتج إنساناً مهمّشاً، ومشوّهاً نفسيّاً وجسديّاً، وذلك بسبب ما يتعرّض له من إقصاء وتعذيب جسديّ وبصريّ في فضاء السّجن. ويظهر ذلك في قول جحدر العُكليّ:[ ]

كانَتْ مَنازِلُنا الّتي كُنّا بِها ... شَتَّى وأَلَّفَ بَيْنَنَا دَوَّارُ [ ]

سِجْنٌ يُلاقِي أَهْلُهُ مِنْ خَوْفِهِ ... أَزْلاً ويُمْنَعُ مِنْهُمُ الزُّوَّارُ [ ]

يَغْشَوْنَ مِقْطَرَةً كَأَنَّ عَمودَها ... عُنُقٌ يُعَرِّقُ لَحْمَها الجَزَّارُ [ ]

تكشف اللّغة الشّعريّة في الأبيات عن وجود فجوة بين ادّعاء السّلطة بأنّها تعمل، عن طريق المؤسّسة العقابيّة، على الحفاظ على وحدة المجتمع وتماسكه، وواقع الاستلاب والتّهميش الّذي يعيشه السّجناء في هذه المؤسّسة.

ففي البيت الأوّل، يُظهر التّضادّ بين (شتّى) و(ألّف) وعي المهمّش للفجوة بين خطاب السّلطة المعلن وواقع التّفكّك والاستلاب؛ إذ يوجّه الشّاعر السّجين، من خلال استخدام هذا التّضادّ، نقداً مبطّناً لممارسات السّلطة، فكلمة (شتّى) الّتي تصف منازل السّجناء وحالهم قبل دخولهم إلى السّجن تشير إلى التّشتّت والضّياع والاغتراب والتّفكّك، أمّا الفعل (ألّف) المسند إلى سجن دوّار فيشير إلى دور المؤسّسة العقابيّة في الحفاظ على تماسك المجتمع، وحماية الرّوابط الإنسانيّة من التفكّك، لكون الفعل (ألّف) يحمل معاني إنسانيّة، فهو من الجذر اللّغويّ (أَلِف) الّذي يدلّ على المحبّة والأنس؛ إذ ورد في لسان العرب: "أَلِفْتُ الشّيءَ وأَلِفْتُ فلاناً إِذا أَنِسْتَ به" [ ]. لكنّ جملة الصّلة (كنّا بها) تأتي لتعرّي زيف ادّعاءات السّلطة بإصلاح المجتمع عن طريق العقوبة، فالإحساس بالكينونة والوجود قد فُقِد بالدّخول إلى فضاء السّجن المغلق، وبدلاً من أن يختبر السّجناء الدّمج الاجتماعيّ المزعوم، فإنّهم يختبرون القهر السّلطويّ والإقصاء؛ إذ يبرز عزل السّجناء في البيت الثّاني بوصفه إحدى الوسائل

---

[١]عطوان، د. حسين، (د.ت.)، *الشعراء الصّعاليك في العصر الأمويّ*، دار المعارف، مصر، ص١٢٠.

[٢]طريفي، د. محمد نبيل، *ديوان اللّصوص في العصرين الجاهليّ والإسلاميّ*،١٥٨/١.

[٣]شتى: متفرّقة متباعدة، ألّف: جمع وقرّب، دوّار: سجن باليمامة كان جحدر قد سجن فيه.

[٤]الأزْل: الضّيق والحبس، الزّوار: جمع زائر.

[٥]المقطرة: خشبة فيها خروق على قدر سعة رجل المحبوسين، يعرّق اللّحم: يفصل اللّحم عن العظم، وأصله أن يأكل ما على العظم من اللّحم.

[٦]ابن منظور، ١٤١٩هـ= ١٩٩٩م، *لسان العرب*، اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، ط٣، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت_ لبنان، مادّة (ألف)،١/ ١٨٠.

الّتي تستخدمها السّلطة لتضمن استمرار هيمنتها عليهم، وبقاءهم في منطقة هامشيّة؛ إذ يُمنع هؤلاء السّجناء من لقاء أحد، ويُحرمون من الاتّصال بالعالم الخارجيّ، فيسيطر الخوف على وعيهم، فهُم داخل مكان مغلق وضيّق، "يلاقي أهله من خوفه أزْلاً"، ولا ينفتح على أفق خلاص.

ثمّ يواصل الشّاعر تعريته للمؤسّسة العقابيّة، وسياساتها الإلغائيّة. فيعرض، من خلال الصّورة التّشبيهيّة في البيت الثّالث "كأنّ عمودها عنق يعرّق لحمها الجزّار"، عنف السّلطة وممارساتها غير الإنسانيّة بحقّ السّجناء؛ إذ إنّها تتعامل مع جسد السّجين بوصفه شيئاً، أو مادّة قابلة للتّفكيك (ذبيحة)، ولا تكتفي بممارسة التّرويض عن طريق الحفر على الجسد وانتهاكه، بل عن طريق التّعذيب البصريّ أيضاً، لتبقى مشاهد العنف السّلطويّ عالقةً في ذهن السّجين "يغشون مقطرة"، وتضمن بذلك السّلطة هيمنتها الدّائمة على الوعي والجسد في آن معاً، فالسّلطة تعتمد على التّفنّن في تعذيب الجسد في السّجون، من أجل التّرويض، وجعله خادماً مطيعاً. وهذا التّعذيب لا يتمّ على المستوى الفعليّ، إنّما يتمّ _أيضاً_ على المستوى البصريّ، ما يجعل السّجين شخصاً تائهاً، يعاني الذّعر والقلق النّفسيّ والخوف المستمرّ، أو شخصاً مطوّعاً حسب رغبات السّلطة.[ ] [١]

ويبدي وعي اللّصّ المهمّش مقاومته لسياسات المؤسّسة العقابيّة الإلغائيّة؛ إذ يحاول اللّصّ من خلال شعره إحياء ذاكرة الصّعلكة الثّقافيّة، واستعادة هويّته الأصليّة، كاشفاً _في الوقت نفسه_ عن ممارسات المؤسّسة العقابيّة الهادفة إلى ترويض جسد السّجين وضبطه، يقول جحدر المحرزيّ العُكليّ:[ ] [٢]

يا صاحِبَيَّ وَبابُ السِّجْنِ دُونَكُما ... هَلْ تُؤْنِسَانِ بِصَحْراءِ اللِّوى نارا

لِوَى الدَّخُولِ إلى الجَرْعاءِ مَوْقِدُها ... والنَّارُ تُبْدِي لِذِي الحاجاتِ أَذْكارا[ ]

لَوْ يُتْبَعُ الحَقُّ فِيْما قَدْ مُنيتُ بِهِ ... أَوْ يُتْبَعُ العَدْلُ ما عَمَّرتَ دَوَّارا[ ]

إذا تَحَرَّكَ بابُ السِّجْنِ قامَ لهُ ... قَوْمٌ يَمُدُّونَ أَعْنَاقاً وأَبْصارا

يظهر الوعي المهمّش، في الأبيات، بوصفه قوّة مقاومة لعمليّات الطّمس والإلغاء الّتي تمارسها المؤسّسة العقابيّة؛ إذ إنّ استحضار الشّاعر صاحبيه وهو في السّجن، وسؤاله إيّاهما عن نار في صحراء اللّوى يمثّل محاولة لتأكيد هويّة الصّعلكة الأصليّة، وإحياء الذّاكرة الثّقافيّة الّتي تحاول المؤسّسة العقابيّة إلغاءها، واستبدالها بذاكرة مضبوطة وفق شروط النّسق السّلطويّ. فالصّحراء تشكّل جزءاً من ذاكرة الصّعاليك الثّقافيّة، فهي الفضاء المفتوح الّذي تأسّست فيه هويّتهم وقيمهم، ولم تكن في شعرهم مجرّد مكان جغرافيّ يحتضنهم ويحميهم، بل شكّلت علامة

---

[١]ينظر: أجعود، أ. ليلة؛ بلعلى، أ.د. آمنة، ٢٠١٩، *المهمّش في الرّواية الجزائريّة من منظور البيولوجيا السّياسيّة لميشال فوكو. مجلّة الخطاب*، الجزائر، المجلّد ١٤، العدد ٢، ص٢١٧_ ٢١٩.

[٢]طريفي، د. محمد نبيل، *ديوان اللّصوص في العصرين الجاهليّ والإسلاميّ*، ١٥٦/١، ١٥٧.

[٣]اللّوى من الرّمل: حيث يتلوّى ويرقّ، الدّخول: هضبة في ديار بني سليم، الجرعاء: اسم موضع، الأذكار: التذكّر.

[٤]دوّار: سجن باليمامة، كان جحدر قد سجن فيه.

سيميائيّة دالّة على الحرّيّة الّتي ينشدونها ضمن دائرتهم الثّقافيّة، "ومثلت لهم الحياة والعيش الأرحب، ولا سيّما بعد انسلاخهم عن المجتمع وانقطاع الأواصر الاجتماعيّة بينهم وبين قبائلهم".[١] [ ]

في مقابل هذا الفضاء الواسع، يظهر السّجن بوصفه مؤسّسة قمعيّة، تعمل على ترويض الجسد، وتحويله من كونه جسداً طبيعيّاً إلى جسد سياسيّ ثقافيّ، فاقد لحركته الطّبيعيّة، فهو جسد مراقِبٌ ومراقَب، يتحكّم الخوف والقيد في حركاته وإيماءاته، ويظهر ذلك في حصر حركة السّجناء في مدّ الأعناق والأبصار "قوم يمدّون أعناقاً وأبصارا"، فهذه الحركة المحدودة في فضاء السّجن المغلق تقف على النّقيض من الحركة غير المحدودة الّتي اعتاد عليها الشّاعر في فضاء الحرّيّة، وهو الفضاء الصّحراويّ الواسع الّذي ينتمي إليه.

ويكشف الشّاعر عن خلل بنيويّ في نظام العدالة الّذي يفترض أن يحكم العلاقة بين السّلطة والرّعيّة، فالسّجن _في نظر الشّاعر_ ليس نتيجة فعل يستوجب العقاب، بل هو نتيجة غياب الحقّ والعدل، وبذلك تصبح المؤسّسة العقابيّة جزءاً من منظومة ثقافيّة سلطويّة، تضمن استمراريّتها وشرعيّتها عبر تغييب الحقّ والعدالة، واستخدام القوّة، فهي منظومة إقصائيّة متحيّزة، تعيد إنتاج الهامش؛ إذ يشير تنكير لفظة (قوم) إلى التّهميش الّذي يتعرّض له السّجناء من قبل هذه المنظومة، فهم مجرّدون من أسمائهم، وخصوصيّتهم، وهويّاتهم الفرديّة، وقد جرى تحويلهم إلى فئة بلا ملامح، خاضعة لشروط المؤسّسة العقابيّة الفاعلة الّتي يرمز إليها باب السّجن المتحرّك، والمتحكّم بحركة السّجناء.

الخاتمة:

يخلص البحث إلى أنّ السّجن ظهر في شعر اللّصوص في العصر الأمويّ بوصفه جهازاً انضباطيّاً شاملاً، ومؤسّسة عقابيّة سلطويّة تعيد إنتاج الهامش. وقد حاول الشّاعر السّجين تعرية المؤسّسة العقابيّة والنّسق السّلطويّ المهيمن عليها، فأظهر آثار هذا النّسق على جسده؛ إذ كان جسده هدفاً للسّلطة الّتي حوّلته من جسد طبيعيّ إلى جسد سياسيّ ثقافيّ، وإلى جسد معذَّب، مراقِب ومراقَب، ومضبوط وفق شروطها. وبيّن خطاب اللّصّ السّجين تغلغل النّسق السلطوي في نفسه، فهي نفس عاجزة، قلقة، متوجّسة، ويسيطر عليها الخوف والوساوس. كما أظهر امتداد هذا النّسق إلى القيم الأخلاقيّة، وإلى العلاقات الاجتماعيّة خارج حدود السّجن؛ إذ عمل على تفكيك الرّوابط الاجتماعيّة بين الأفراد، وجعل العلاقة بينهم قائمة على تراتبيّة سلطويّة، تقسم النّاس قسمين؛ هما الحاكم والمحكوم.

كما أشار اللّصّ السّجين في خطابه الشّعريّ إلى أنّ المؤسّسة العقابيّة تؤدّي دوراً في إنتاج الوصمة الاجتماعيّة الّتي تظلّ ترافق السّجين حتّى بعد خروجه من السّجن، فتجعله يبدو إنساناً ناقصاً في أعين الآخرين، وحاملاً لهويّة مشوّهة موصومة، وتسبغ عليه صفات سلبيّة ومغايرة، وهذا ما يجعل بقاءه في مرتبة هامشيّة أمراً مشروعاً ومقبولاً.

وقد حاول اللّصّ السّجين مقاومة سياسة المؤسّسة العقابيّة الإقصائيّة والإلغائيّة، من خلال تعرية خطابها الإصلاحيّ، وفضح ممارساتها غير الإنسانيّة بحقّ السّجناء، الّتي تتناقض مع خطاب الإصلاح الّذي تروّج له. وكان في استدعاء الصّحراء، بما تحمله من دلالة على الحرّيّة المنشودة، إشارة إلى رغبة اللّصّ المهمّش في

[١]عبود، م.د. شيماء حاتم، ٢٠٢٠، *سيميائيّة البنية الثقافيّة وأثرها في شعر الصّعاليك الجاهليّين. مجلّة ديالى*، العراق، المجلّد ١، العدد ٨٣، ص٤٨٠، ٤٨١.

حماية ذاكرة الصّعلكة من محاولات الطّمس والإلغاء في المؤسّسة العقابيّة، وفي حفظ الهويّة الثّقافيّة من خطر الذّوبان والانحلال.

المصادر والمراجع:

[١] أجعود، أ. ليلة؛ بلعلى، أ.د. آمنة، ٢٠١٩، *المهمّش في الرّواية الجزائريّة من منظور البيولوجيا السّياسيّة لميشال فوكو. مجلّة الخطاب*، الجزائر، المجلّد ١٤، العدد ٢.

[٢] ج. لينك، بروس؛ ك. فيلان، جو، شتاء٢٠٢٠، *مفهمة الوصمة*، ترجمة ثائر ديب. *مجلّة عمران*، المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات، الدّوحة، المجلّد ٨، العدد ٣١.

[٣] دوابشة، د. محمد، جمادى الآخرة ١٤٢٩=حزيران ٢٠٠٨م، *تجربة السّجن في الشّعر الأمويّ. مجلّة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات*، العدد الثّالث عشر.

[٤] طريفي، د. محمد نبيل، ١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م، *ديوان اللّصوص في العصرين الجاهليّ والإسلاميّ*، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت_ لبنان.

[٥] عبد الحق، طالبي، ٢٠١٠/٢٠١١، *المنهج الأركيولوجي في فلسفة ميشال فوكو (رسالة ماجستير)*، إشراف الدكتور دحدوح رشيد، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، الجزائر.

[٦] عبود، م.د. شيماء حاتم، ٢٠٢٠، *سيميائيّة البنية الثقافيّة وأثرها في شعر الصّعاليك الجاهليّين. مجلّة ديالى*، العراق، المجلّد ١، العدد ٨٣.

[٧] عطوان، د. حسين، (د.ت.)، *الشّعراء الصّعاليك في العصر الأمويّ*، دار المعارف، مصر.

[٨] عقيلي، م. انتصار أحمد يعقوب، ٢٠١٩م، *المتغيّر الأسلوبيّ (اللّيل) في شعر الصّعاليك. مجلّة علوم اللّغة العربيّة وآدابها*، الجزائر، المجلّد ١١، العدد ١.

[٩] عليمات، د. يوسف، ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م، *النّسق الثّقافيّ، قراءة في أنساق الشّعر العربيّ القديم*، ط١، عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوريع، إربد.

[١٠] العنزي، صغير بن غريب عبد الله، ١٤٣١/١٤٣٢هـ، *رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث الهجري (رسالة دكتوراه)*، إشراف أ.د. صالح بن سعيد الزهراني، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، قسم الأدب، المملكة العربية السعودية.

[١١] الغذّامي، عبد الله، ٢٠٢٣، *إشكالات النّقد الثّقافيّ، أسئلة في النّظريّة والتّطبيق*، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء_ المغرب.

[١٢] فوكو، ميشيل، ١٩٩٠، *المراقبة والمعاقبة، ولادة السّجن*، ترجمة د. علي مقلد، مراجعة وتقديم مطاع صفدي، مركز الإنماء القوميّ، بيروت.

[١٣] محمود، عبد المطلب، ٢٠٠٣، *الإبداع والاتّباع في أشعار فتّاك العصر الأمويّ*، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق.

[١٤] ابن منظور، ١٤١٩هـ= ١٩٩٩م، *لسان العرب*، اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، ط٣، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت_ لبنان.